



ما زال بعضهم يصرّ على العزف خارج السرب الدولي، مستغرباً سبب قبول زعماء العالم الغربي بقاء رأس النظام السوري في السلطة، مدعّمين استغرابهم بأن بشار الأسد أكبر قاتل في العصر الحديث، وهذا سبب كاف لأن ينبعه زعماء العالم الحر، لأن يتحسّر زعيم ليبرالي عولمي بوزن الرئيس الفرنسي، إمانويل ماكرون، على إغلاق سفارة بلاده في دمشق سبع سنوات، وانقطاع التواصل مع نظام الأسد وأجهزته.

يعرف الغرب تماماً من قتل وبأي سلاح فعل، لديهم تقنيات تكنولوجية، تتيح لهم رصد كل مكالمة وكل أمر عسكري، وينتشر عملاوهم وعيونهم في كل مكان، يعرفون أكثر مما نعرف، نحن أهل البلاد، ما يجري في حوارينا وأزقتنا، ولكن ليس من مهامهم إعلان موقف من القاتل.

عندهم أن بشار الأسد ليس خطراً على الخارج، قالها ماكرون، وقبله ردّ وزير خارجية روسيا هذه المعزوفة على أسماع نظرائه الغربيين، قبله كان عبد الفتاح السيسى يقتل أول تجربة ديمقراطية في تاريخ الدولة المصرية الحديثة، ويجتث بيتهما الحاضنة، وكأنه يعيش في عالمٍ لا رقيب فيه، ومع ذلك جرى دعمه وتكريمه.

عندهم أيضاً أن كل ما يفعله الأسد خيرٌ صاف، الرجل أجرى هندسة اجتماعية بالسكين لموازنة الأكثريّة بالأقلّيات، وضمن بقاء الأقلية وسيطرتها مدى زمنياً طويلاً، أنقذ البلد من موجة الإسلاموية إلى مائة سنة مقبلة، رحل إلى أوروبا عمالة تحتاجها باللحاج في الوقت الراهن، ثمّ مهّنَ كثيرةً ضروريةً لمجتمعات أوروبا عافها الأوروبيون، إما لقلة مردوديتها أو لصعوبة العمل بها، دعك من صرّاحات بعض الشعبيّين هؤلاء، ليسوا على إطلاع بالمعطيات، ولا يعرفون المخططات.

أثبتت الأسد قدرة هائلة على إدارة مساكنة دولية على أرض سوريا، فقد أرضى جميع الأطراف، دولاً وجماعات وأحزاباً، واستطاع منحهم ما يكفيهم من حصص وقواعد وممرات ومطارات. وشعر الكل معه بأنه أعظم من في العالم وأقوى من في الإقليم، وزع عليهم ثروات سوريا مثلما يشتتهن ويحبّون، وفاض كرمه الذي تجاوز كرم حاتم الطائي الذي وقف عند ذبح

حصانه للضيف، بأن منح صديقه فلاديمير بوتين سماء مفتوحة، وأرضاً عامرة باللحم الحي، ليجرّب عليها الأخير أسلحته، ويصنع دعائيةً لمنتجاته القاتلة أمام الزبائن وعلى الهواء مباشرة.

أثبت بشار الأسد أن الجغرافيا السورية رحبة، وتنسخ لأشياء كثيرة، ولا تصيب إلا على السوري وحده، لا لشيء سوى أنه لا يعرّف استخدام المساحات بغير زراعة القمح ورعايّة مواشيّه، وملاعب لأولاده، فيما اكتشف الأسد أنها في عصر الصراعات الإستراتيجية وزمن العولمة وصراعات خطوط النفط والغاز ومشاريع طرق الحرير والسلام، تساوي أكثر من ذلك بكثير، وأثبت أن كل شيء مسموح في جغرافية سوريا، ووهدّها حرية الشعب السوري الممنوعة، ليس من قلة حادثة يفتقر لها الرجل، بل لأن حرية الجهلة جالية للإرهاب، ومهدّدة وحدة التراب.

هل من قائل إن الأسد قاتل؟ نعم لكنه قتلٌ وظيفيٌّ هدفه تحديد الشعب، فالتحديث، في آخر نسخه، بات يعتمد القتل أداةً لإنجاز هذه المهمة، لم تعد مهمّة الحاكم طرح أفكار ومشاريع تحديّة وصياغتها، ما دامت الأفكار ملقاءً على قارعة العالم بعد قرون من دخول الحادثة بوابة العالم، وتغلغلها في جنباته، خصوصاً وأن الغرب علق في أزمة التحديث، إذ ليس شرطاً أن تأتي عمليات التغيير السياسي بالتحديث الذي يتطابق مع الاغتراب أو التغرب، كما أن الديمocrاطية يمكنها إيصال أشخاص إلى السلطة على تصادم مع الغرب، في حين أن قائمة الديكتاتورين العرب، وإن كانت تمنّع الديمocrاطية، إلا أنها تطبق روشتية الغرب في التحديث والعولمة ونمط الحياة الغربي وسوها، ولا تستغربوا اقتران الحادثة بالقتل، الغرب نفسه كان قد دشنَ حادثة اليابان بمذابح ناغازاكي وهيروشيمما.

الأكثر من ذلك أن الأسد يمزج بين الحادثة والديمocrاطية، فهو لم يُجبر أحداً على الثورة ضده. استلم الرجل السلطة بالوراثة، وسمح للشعب بتجديد البيعة له كل سبع سنين، كما أنه لم يُجبر أحداً على القتال معه، من فعل ذلك فعله لأسبابه الخاصة، كان ديمocrاطياً إلى أبعد الحدود، وغداً عندما تبرد الجراح، وينظر كلُّ إلى الحدث من زاويته الخاصة، سيكتشف السوريون حجم إنجازات الأسد. كان الوصول إلى أوروبا وأميركا حلماً لدى السوريين، لا يناله إلا أصحاب الثروات والمشاهير، وهذا هم السوريون يتجلّون في أوروبا مثّلماً يتجلّون في حواري مدنهم، حتى سكان المخيمات أغلبهم من أبناء الأرياف الذين ملأوا من رتابة الريف، وقيوده الاجتماعية وسنوات الجفاف القاهرة، وهذا هم اليوم يعيشون في المخيمات حياة المدن النشطة، وينعمون بالمساعدات الدولية، من دون انتظار السماء أمطرت أم لم تمطر، وحتى المولعون سيكتشفون أنهم تخلصوا من الزعران في قراهم ومدنهم، وحصلوا عوضاً عنهم على ساعاتٍ تزيّن حيطان بيوتهم.

كيف يفرّط العالم برئيسٍ كهذا، أدار كل هذه التوازنات، وحقق كل تلك النتائج المبهرة في زمنٍ ترتكب دول عظمى في إدارة صراعاتها على مساحةٍ صغيرة في بحر اليابان والمتجمد الشمالي، وتتهافت شعوبها على فرصة عملٍ تحسّن بها أو ضاعها. فقط من نوع على بشار استخدام الكيميائي، ونوع محدّد منه، وبالأسفل لم يعد الرجل بحاجة لهذا النوع من السلاح. وباعتراف الأمم المتحدة، سبق أن استخدمه مائة وخمسين مرّة قبل ذلك، ما يعني أنه لو كان لعبة بلاي ستيشن تلك التي يعشّقها الأسد أكثر شيء، لكان قد عافها وانتهى منها هذا الحادثي الديمocrاطي.. والوسيم.